نقد نظرية المؤامرة في ربيع الثورات العربية

ذي حسم أمر إسقاط أنظمة الاستبداد في بعض البلاد العربية والمغاربية؟ وهل يمكن الافتراض بأن الثورات العربية كانت بفعل مخطط أجنبي؟ أم كانت نتيجة طبيعية لاستبداد أنظمة الحكم ومصادرتها للحريات وتجبرها واستحواذها على مدخرات الأمة وخيراتها؟

وقد كان للانحياز العلني للإعلام الغربي مع الحراك الشعبي والدعوات العلنية التي ظهرت من البيت الأبيض وغيره من صناع القرار الغربي لرموز الأنظمة الدكتاتورية إلى التخلي عن الحكم، كما حدث مع بن علي ومبارك وأيضا حملات الدعم التي قامت بها في البداية ـ خصوصا ـ قنوات إعلامية عربية معروفة بولائها للسياسات الغربية في المنطقة بل وحتى الصهيونية دورا كبيرا في هذا الالتباس والغموض . وإذا كان من الصعب الجواب على هذه الأسئلة في بداية الأحداث، نظرا لتسارعها وتتابعها، إلا انه كلما استقرت الأمور واتجهت إلى صورة أكثر وضوحا، كلما سهل فهم وتحليل المشهد في كل أبعاده الإستراتيجية.

في البداية حدث استقطاب وانقسام حاد بين المحللين ومراكز الدراسات كل واحد حاول تقديم قراءته للأحداث حسب موقعه السياسي والأيديولوجي والمصالح التي يمثلها. فهناك من رأى أن الربيع الديمقراطي كان عفويا، وثورة حقيقية ضد الأوضاع الكارثية في العالم العربي، وكانت هذه وجهة نظر قناة الجزيرة وما تمثله من مصالح عرابيها وممونيها وأصحاب الحل والعقد فيها، وبعض الإعلام العربي الآخر في بعض مراحل الأحداث. الذي لم يؤيد هذا المنحى وشكك فيه، أتى بأسئلة وتحليل وجيه،

يقوم على أن انتفاضات الربيع العربي ليست عفوية إلى الحد الذي يصوره الإعلام المرتبط بالدوائر الأمريكية والغربية عموما، وقد تزعم هذا الرأي عدد من المفكرين كمحمد حسنين هيكل والفيلسوف التونسي مازري حداد مؤلف كتاب "الوجه المخفي للثورة التونسية، الأصولية والغرب: تحالف محفوف بالمخاطر الكبرى"، حيث يستعرض في هذا الكتاب وثائق يقول أنها تثبت أن الأجهزة السرية الأميركية ابتدأت منذ عام ٢٠٠٨ بتدريب الشباب العربي أو بعضهم على كيفية تفجير الثورات عن طريق الفيسبوك وبقية الأجهزة المعلوماتية الحديثة. إضافة إلى البروباغندا الهائلة التي مارستها قناة الجزيرة. يضاف إلى ذلك انه من المؤكد أن أوباما هو الذي ضغط على قادة الجيش لكي يتخلوا عن بن علي في تونس وحسني مبارك في مصر، وكان له ما أراد وبالتالي فهذا الربيع العربي تم التخطيط له بشكل مسبق ووقع الجميع في الفخ دون أن يدروا. بل إن تسمية الربيع العربي نفسها ليست عربية وإنما كان أول من استخدمها الإعلام الفرنسي والغربي عموما. ويرى مازري حداد أن هذا الربيع سوف يتحول إلى خريف بل وشتاء أصولي قارس. فالمستفيد الوحيد منه الذي سيقطف ثمرته هو الحركات الإسلاموية على حد تعبيره. وأخيرا يرى أن الغرب سيندم كثيرا على فعلته تلك، إذ قبل التحالف مع الإخوان المسلمين. هذا باختصار شديد ملخص الأطروحة الذي يذكرنا بنظرية المؤامرة التي يتبناها محمد حسنين هيكل أيضا. لكن السؤال الذي يمكن أن نطرحه على مازري حداد وهيكل هو التالي: هل يمكن للمؤامرة أن تنجح لولا أن هناك عوامل مساعدة على نجاحها؟

لم يكن للإعلام العربي الدافع الحقيقي لنشر الدعوة ولم يشمل ملامح بل

هنام ملامح حقيقية لواقع العالم العربي الذي تبين الحقيقة للثورات العربية.

وفي نفس الاتجاه هناك من ذهب إلى أن الربيع الديموقراطي كان عملية استباقية للغرب للإطاحة بالخطر الإسلامي المتنامي، سيما جماعة الإخوان المسلمين وتحجيم دورهم وقوتهم. فحسب هذا التحليل ليس هناك أفضل وسيلة لتوريط الإسلاميين مثل إشراكهم في الحكم ومن ثم التضييق عليهم وخلق الظروف غير المؤاتية لتأدية دورهم ودفعهم للفشل ومن ثم توريطهم مع قواعدهم الشعبية، فهذا آخر ما توصلت إليه بعض الدوائر الخاصة بعدما أدركوا أن أكبر خطأ استراتيجي مواجهة التيار الإسلامي بالقوة، ويبدو ذلك جليا في مصر وتونس وليبيا وحتى المغرب. فالربيع العربي عند هؤلاء مؤامرة(ناتجة جزئيا على الأقل عن تفاهم بين أمريكا والإخوان المسلمين. وقد ساهم طيب رجب أردوغان زعيم الإخوان المسلمين الأتراك الذي أصبح عرابا للأنظمة الإخوانية) يقول الدكتور السوري هاشم صالح في كتابه 'الانتفاضات العربية في ضوء فلسفة التاريخ'، قبل أن يتابع توضيح مضمون هذا الاتفاق (يقتضي هذا الإتفاق بأن يقوم الإخوان المسلمون بتحييد الجناح الأكثر تطرفا في الحركة الإسلامية كـ'القاعدة' وسواها مقابل أن تسهل أمريكا رحيل الأنظمة كمبارك وبن علي وتسلمهم مفاتيح الحكم .(إن الأمر يتعلق هنا بصفقة حسب هذا التحليل.

لا شك أن تفسير ظاهرة الربيع الديمقراطي في اعتقادنا بهذه التفسيرات التي ترمي في أحضان المؤامرة، يؤدي إلى قتل روح المبادرة والأمل لدى الشعوب ويزيدها شعوراً بالإحباط واليأس من كل شيء حولها، ويصور تلك الشعوب بأنها دمى محنطة يسيرها كل من يريد بحسب ما يريد، وقد سمعنا كلاماً كثيراً مشابهاً من العديد من المثقفين والمتنورين يصب

في خانة نظرية المؤامرة. بالطبع فإننا يجب أن نفرق بين الدوافع الحقيقية لقيام الربيع الديمقراطي وبين ما آلت إليه الأمور بعدها بعد دخول القوى الخارجية وركوبها موجة الانتفاضات الشعبية واختراقها وهندسة نتائجها فيما بعد، مستغلة عفوية هذه الانتفاضات وافتقادها للقيادة والمشروع الفكري والسياسي، ولا يعني هذا أن نختزل الأمر كله بمؤامرة خارجية فالحقيقة والواقع اعقد من هكذا تصور وتحليل.

إن خيار الشعوب وتضحياتها هو خيارٌ موجود وأصيل، ونتيجة طبيعية لظروف هذه الشعوب. وأي تجاوز له هو تسطيح لقيمة هذه الشعوب، وقدرتها على الفعل. ولحسن الحظ أن الشعوب لا تقتنع بهذه النظرة التي تقول ان إنجازها الإيجابي الذي حققته بعد عقود من الظلام ليس إلا تطبيقا لإرادة غربية، وإلا لتحطمت معنوياتها و لعجزت أن تتقدم إلى أي خطوة أخرى. لقد مثل الربيع الديمقراطي بحق قنبلة انفجرت بعد أكثر من نصف قرن من الاحتقان المتواصل والتهميش وامتهان الكرامة الإنسانية و ممارسات بشعة تقوم بها أنظمة استبدادية شمولية أليغارشية لم يشهد التاريخ لها مثيلاً،قهرت الشعوب وأحاطت بها جدار غليظ من الجوع والحرمان والظلم والقهر والاضطهاد الذي لو تم تسليطه على الحديد لذاب على شدة بأسه ،أما غياب المشروع المجتمعي أو ما يسمى بالنظرية الثورية في الأدبيات اليسارية الماركسية وغياب القيادة عن هذه الثورات، فذاك حديث و نقاش آخر، وهو تحدي مطروح على النخب المثقفة ومسؤوليتها التاريخية لصياغة المشروع التغييري و الحضاري. رغم أننا نقر أن حديث المؤامرة في بعض أحواله لا يعتبر حديثاً كاذباً، لكن الإيمان به والتحرك على ضوئه، يُضعف ويشتت أفكار الأفراد والشعوب

عـن نفسـها. نعـم، نحتـاج إلى الحـذر مـن المخططـات الصهيوأمريكيـة، ومـن الاسـتعمار في نسـخته الحديثـة المتجسـدة في الحـروب الناعمـة التـي تسـتخدمها الدوائـر الامبرياليـة لتخـترق وعينـا الجمعـي وتسـقطنا مـن الداخـل بأيدينـا وأدواتنـا وشـعاراتنا ونحـن نعيـش حالـة مـن الغبطـة، لتتمكـن هـذه الدوائـر وفي غفلـة مـن أنفسـنا مـن إعـادة إنتـاج نفـس المنظومـة الاسـتبدادية خاصـة وأننـا نعيـش زمـن العولمـة والسـوق الحـر والـشركات المتعـددة الجنسـيات. و لكـن لنتذكـر أن الشـعوب لـن تنجـح في الوقـوف ضـد أطـماع مسـتبد الداخـل أو مسـتعمر الخـارج بـلا إيمـان بقدرتهـا عـلى الفعـل.

ويمكـن القـول أن حتـى الذيـن تحدثـوا عـن المؤامـرة لم يسـتطيعوا إنـكار العوامـل الموضوعيـة التـي أدت إلى انطـلاق شرارة أحـداث مـا يسـمى الربيـع العـربي . وبالتـالي رغـم توكيدهـم عـلى نظريـة المؤامـرة إلا أنهـم يعترفـون بمشروعيـة الانتفاضـات الثوريـة للشـعوب. فحكـم الاسـتبداد المخابـراتي للحـزب الواحـد أو حتـى للعائلـة الواحـدة عـلى الصعيـد السـياسي الـذي ميـز الأنظمـة العربيـة، والفسـاد والرشـوة والمحسـوبية عـلى المسـتوى الاقتصـادي، والبطالـة الكثيفـة الهائلـة التـي تصيـب الشـباب مـن جهـة ثالثـة، كل ذلـك يشـكل عوامل موضوعيـة لانفجـار الربيـع الديمقراطـي. وبالتـالي فالأرضيـة كانـت مهيـأة تمامـا لذلـك الانفجـار. وأمـيركا رغـم جبروتهـا لا تسـتطيع أن تخلـق الأشـياء مـن عـدم. وهـذا يعنـي أنـه بمؤامـرة أو دون مؤامـرة كان الوضـع ينتظـر شرارة فقـط لـكي ينفجـر. وهـذا مـا حصـل عندمـا "ضغطـت" الأجهـزة الأميركيـة عـلى الـزر واندلعـت شرارة الثـورات. "فمهنـدسي" الربيـع العـربي- اذا قبلنـا تجـاوزا بنظرية المؤامـرة- لمـا أدركـوا أن نضـج الشـعوب قريـب وان الإصـلاح الحقيقـي مسـألة حتميـة وان الظـروف الإقليميـة والدوليـة نضجـت إلى حـد كبـير بعـد وصـول

دعـم الغـرب للأنظمـة الاسـتبدادية والكيـان الاسرائيـلي إلى طريـق مسـدود، اضطـروا إلى تفقيـس البيـض قبـل الأوان حتـى يولـد الفـرخ ميتـا أو عـلى الأقـل وأد ثمـار الثـورة والإصـلاح المنشـود، وبالتـالي تفـادي إصـلاح حقيقـي في المنطقـة ،إصـلاح يعـي الغـرب تمـام الوعـي انـه لـو حصـل فانـه سـيهدد مصالحـه الإسـتراتيجية. عـلى هـذا النحـو تصبـح نظريـة المؤامـرة مفهومـة وتتخـذ أطروحة جديـة ومعقوليـة. فالمؤامـرة ضمـن هـذا التفسـير لم تعـد مؤامـرة تقريبـا وإنمـا أصبحـت عبـارة عـن اسـتغلال ذكي لوضـع جاهـز للاسـتغلال.

هذا هو الواقع للثورة والربيع العربي.

د.عبد الكريم العلوجي

obeikandl.com